كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم النفس

دروس في مادة علم النفس النمو والفروق الفردية -2-

د/حاجب سلسبيل

المرحلة الحسية الحركية (تابع)

يتعامل الطفل في هذه المرحلة مع الواقع، حيث لا مجال للتفكير لأنّ الطفل يكون متمركزا حول ذاته، وذلك لكونه غير قادر على إدراك الأشياء/ الموضوعات إلاّ من خلال الاتصال المباشر.

تتميز هذه المرحلة بنمو ذهني هائل، إلاّ أنه غالبا لا يتم إدراك أهمية هذا النمو نظرا لكونه غير مرفوق بالكلام الذي يسمح بتتبع تقدم الذهن والمشاعر، مقارنة مع المراحل اللاحقة. لكن في حقيقة الأمر فإنّ النمو الذي يمس هذه المرحلة يكون حاسما بالنسبة للتطور الذهني الذي يليه ككل، ذلك أنه يتمثل فعلا في اكتشاف الطفل وتعرفه على العالم العملي المحيط به من خلال الحواس والحركات الذي يحقق الاستيعاب الحسحركي للعالم الخارجي.

في بداية النمو يرجع الطفل كل شيء إلى ذاته ليصل حين يبدأ الكلام والتفكير إلى تحديد هذه الذات بشكل عملي ضمن عالم قام ببنائه تدريجيا معتمدا على نفسه ومن ثمة يدركه كعالم خارجي نسبة إلى ذاته.

على الرغم من أن بياجيه قسم المرحلة الحسية الحركية إلى ست مراحل فرعية، إلاّ أن الدارس للنمو الذهني الذي يتمحور حول الذكاء يجد بأنه يركز على ثلاث لحظات أساسية هي كما يلي:

- اللحظة الأولى: الارتكاسات
- اللحظة الثانية: تنظيم الحواس والعادات
- اللحظة الثالثة: الذكاء الحسي الحركي.

أ- الارتكاسات:

تمتد هذه المرحلة من الميلاد إلى حدود الشهر الأول، تنحصر الحياة الذهنية فيها في تدريب الأجهزة الإرتكاسية، أي تدريب التناسقات الحسية الحركية المركبة وراثيا وتكون متطابقة مع الميولات الغريزية مثل "التغذية". تكشف هذه ارتكاسات (ردود الفعل) منذ البداية عن نشاط حقيقي يؤكد بالضبط وجود استيعاب حسي حركي مبكر، مثال ذلك ارتكاسات الامتصاص التي تزداد دقة بفعل التدريب فتؤدي إلى تمييز عملي سهل الاكتشاف يفضي إلى تعميم نشاط الرضيع؛ ففي هذا المستوى لا يكتفي الرضيع بمص الثدي أو قارورة الحليب بل يتعدى ذلك إلى المص في الفراغ ومص أصابعه متى التقت يده بفمه.

ب- تنظيم العادات والحواس

تمتد هذه المرحلة من الشهر الثاني إلى بداية الشهر السادس، وتتفرع إلى مستويين، يمتد الأول من الشهر الثاني إلى الشهر الثالث، أما الثاني فيمتد من الشهر الرابع إلى نهاية الشهر الخامس.

يتميز المستوى الأول (من الشهر الثاني إلى الشهر الثالث) بقدرة الرضيع على تنسيق حركة اليد مع فعل الامتصاص إلى أنّ يصل بشكل منظم خلال الشهر الثاني إلى وضع أصبعه في فمه.

بالنسبة لبياجي فإنّ الرضيع يستوعب جزءًا من عالمه من خلال عملية الامتصاص، حيث أنّ مختلف هذه التداريب الارتكاسية سوف تتعقد عند اندماجها ضمن عادات وإدراكات حسية منظمة، فتصبح منطلقا لاكتساب سلوكات جديدة من خلال التجربة.

نستنتج أن الامتصاص المنظم للأصبع ينتمي إلى هذه المرحلة، ويمكن تعميم ذلك على الاستجابة لمصدر الصوت من خلال حركة إدارة الرأس وكذلك على الاستجابة البصرية من خلال تتبع شيء متحرك. ويمكن أن نسجل كملاحظة من أنّ استجابة الطفل بالابتسام التي تكون ابتداء من الأسبوع الخامس تشكل دليلا على ظهور قدرة التعرف على بعض الأشخاص وتمييزهم من بين آخرين، على أن إدراك الرضيع لهذه الأشخاص يكون عبارة عن لوحات محسوسة ومتحركة، لكن هذا لا يثبت شيئا من حيث انفصال الأنا عن العالم الخارجي.

أما المستوى الثاني (من الشهر الرابع إلى الشهر الخامس) فيتميز بقدرة الرضيع على إمساك كل ما يراه في محيطه، ولعل تكرار هذه العادة تُضاعف من قدرته على تكوين عادات جديدة، التي تشكل أساس تكون مجموعات إدراكية ومجموعات حركية، تندرج ضمن ما يسميه بياجي مخطوطات/ أخطوطات Schèmes حسية حركية، يساهم تكرار هذه العادات في استيعاب معارف جديدة تشكل كلية منظمة. وبالتالي يكفي أن يقوم الرضيع بأية حركة اعتباطيا لتظهر سلوكات مهمة، تتجلى أهميتها في كونها قابلة للاستيعاب من طرف أخطوطات سابقة. وهكذا فإنّ ردود الفعل الدائرية التي تحدث عنها بياجي تؤدي دورا أساسيا في النمو الحسي الحركي ويمثل شكلا متقدما من أشكال الاستيعاب.

ج- الذكاء العملي

تحظى هذه المرحلة بأهمية كبيرة بالنسبة لبياجي، فالذكاء العملي أو الحسي الحركي يظهر قبل اللغة، أي قبل التفكير الداخلي الذي يفترض استعمال علامات لفظية أو ما يسمى باللغة المستبطنة. ويسمى الذكاء العملي لكونه يقوم على الأشياء أو الموضوعات عوض استخدام الكلمات والمفاهيم، أي أنه يستخدم الإدراكات الحسية الحركية المنظمة ضمن أخطوطات الفعل، ومثال ذلك استخدام الطفل في هذه المرحلة للعصا من أجل تقريب لعبة بعيدة.

إنّ قدرة الطفل على الربط بين الوسيلة والهدف سلوك يظهر حوالي الشهر الثامن عشر، وتتطلب هذه العملية فهما مسبقا للعلاقة بين الوسيلة والهدف. كما تتدخل في تكون

السلوكات الذكية عاملين أثنين، يتعلق الأول بالسلوكات السابقة والثاني بأخطوطات الفعل. بالنسبة للعامل الأول فإنّ السلوكات تتمايز وتتعدد وهكذا لا يكتفي الطفل بتكرار الحركات والإشارات التي أدت إلى إنتاج سلوك معين، بل إنه يغيرها عن قصد بهدف التعرف على نتائج هذه التغيرات، ومثال ذلك سلوك رمي الأشياء على الأرض الذي يظهر لدى الرضيع في الشهر الثاني عشر تقريبا.

أما عن العامل الثاني، أي أخطوطات الفعل التي تتشكل منذ المرحلة السابقة تتعدد بفعل هذه السلوكات التجريبية الجديدة، تصبح قابلة للتنسيق مع مفاهيم التفكير لاحقا.

إذن كل فعل/ سلوك فهو قابل للتكرار والتعميم على أوضاع جديدة، حيث كلما وجد الطفل نفسه أمام شيء جديد إلاّ ويقوم بإدماجه ضمن أخطوطات الفعل من خلال محاولة لمسه، تحريكه، أرجحته.. أي أن فهم السلوك الجديد واستيعابه يتم من خلال الاستخدام.

ينتج تناسق الأخطوطات عن عملية الاندماج التي تؤدي إلى تحديد الفعل كهدف إضافة إلى تحديد الوسيلة، بمعنى أن أخطوطات الفعل تنقسم إلى قسمين: يفيد القسم الأول في تحديد الهدف من خلال عملية الاندماج؛ و يفيد القسم الثاني في تحديد الوسيلة التي تستخدم من أجل تحقيق الهدف. بهذا يمكن القول إنّ ظهور الذكاء العملي يتم من خلال هذا التناسق الذي يأخذ بعين الاعتبار مكتسبات المرحلة السابقة.